مع خليل باشا ونوتاراس

خليل باشا كان وزيراً لمحمد الفاتح، ولكن كان هناك إجماعٌ يكاد يكون تامًا بين المؤرخين الشرقيين والغربيين على أن خليل باشا كان يمالئ الروم على المسلمين . . أما (نوتاراس) فهو الرجل الثالث في قيادة جيش الروم بعد قسطنطين وجستنيان الجنوي.

وكان الدوق (نوتاراس) كما رأينا من قبل قد قابل السلطان الفاتح ولقى منه كل حفاوة ورعاية، وقد عاتبه السلطان على عدم تسليمه المدينة بعد أن أرسل إليها الإنذار الأخير، ومن قبل أن يصيبها الخراب وتراق الدماء، وأجاب نورتارس: بأن استمرار المقاومة يرجع إلى الجنود الأجانب وإلى الرسائل التي كان يبعثها أحد وزراء السلطان إلى قسطنطين يحثه فيها على مواصلة المقاومة وعدم الاستسلام، ويطمعه في رفع الحصار (ربما يقصد خليل باشا الذي كان حاضراً)، وقد اهتم قسطنطين بهذه الرسائل وعمل بها.

وما إن سمع خليل باشا هذا حتى ظهر عليه الارتباك والخوف، وكان واقفًا بجانب السلطان فصاح: كلا يا سلطاني، من المستحيل أن يوجد في معيتكم من يرتكب مثل هذا الخزي والعار، إنَّ هذا الكافر يفتري كذبًا فلا تسمحوا له بالكلام واقطعوا رأسه، فنظر الفاتح إلى خليل باشا وعلى فمه ابتسامه ساخرة، وقال له: «فلماذا ترتبك إذن يا لالا؟ ألا تجيب على هذه التهم الموجه إليك؟».

أمَّا نوتاراس فقد صفح عنه السلطان وأكرمه ووهب له ولأولاده مالاً كثيراً، وذهب في اليوم التالي إلى بيته لعيادة زوجته المريضة فواساها وأسبغ عليها من

عطفه ورعايته، ولكن نوتاراس ومن معه من نبلاء الروم قد أغرتهم هذه المعاملة السمحة الكريمة من الفاتح وأطمعتهم، فأخذوا يأتمرون لإخراج المسلمين من القسطنطينية، وبعثوا رُسلاً إلي إيطاليا يدعون إلى حملة صليبية ضدهم، فأمر السلطان الفاتح باعتقالهم وقتلهم.

واستعرض السلطان الفاتح جنوده بعد فتح القسطنطينية استعراضًا عسكريًا في أدق ميدان، شبيهًا بالاستعراضات العسكرية التي نراها اليوم، ثم أقيمت بين الجنود مسابقة في الرماية بمختلف الأسلحة، فأقبلوا عليها بنفوس مرحة نشيطة. وبعد انتهاء المسابقة أقام الفاتح مأدبة حافلة لجنوده استمرت ثلاثة أيام أقيمت خلالها الزينات والمهرجانات، وكان السلطان الفاتح يقوم بخدمة جنوده بنفسه متمثلاً بالقول السائر: «سيد القوم خادمهم» ووزع عليهم العطايا والمنح.

ثم نهض ذلك الشيخ العالم الورع آق شمس الدين فقال: يا جنود الإسلام، اعلموا أن النبي ﷺ قال في شأنكم: «لتفتحن القسطنطينية. فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش». ونسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يوفقنا ويغفر لنا جميعًا، ألا لا تسرفوا ما أصبتم من أموال الغنيمة ولا تبذروا في البر والخير لأهل هذه المدينة، واسمعوا لسلطانكم وأطيعوه وأحبوه، ثم التفت إلى الفاتح وقال له: «يا سلطاني، لقد أصبحت قرة عين آل عثمان، فكن على الدوام مجاهدًا في سبيل الله، ثم صاح مكبرًا بالله في صوت جهور جليد[1].

هكذا تم فتح القسطنطينية للسلطان محمد الفاتح، وخرت هذه المدينة القاسية الحصينة أمام عبقرية محمد الفاتح العسكرية، والتي عجز عن فتحها كثير

(١) أحمد مختار «فتح جليل قسطنطينية».

من العتاة والغزاة الفاتحين في محاولات بلغت العشرين محاولة، فشلت جميعها تحت أسوار القسطنطينية الشامخة وقلاعها المنيعة، وردتهم على أعقابهم، ولكنها أمام محمد الفاتح خرت صاغرة مطيعة ترفع اسم الإسلام.

وقرر السلطان محمد الفاتح أن يتخذ من القسطنطينية عاصمة لدولته، بل العاصمة الإسلامية الكبرى، فاستبدل اسمها باسم استانبول، وهي كلمة تركية معناها: (دار الإسلام)، وعرفت المدينة منذ ذلك الوقت باسم استانبول أو أسلامبول أو الأستانة[1].

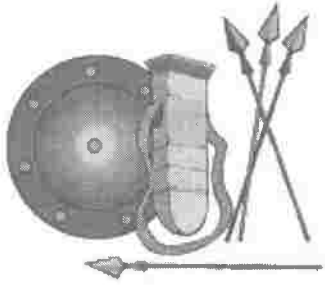

(١) «تاريخ سلاطين آل عثمان» ـ أحمد القرماني في (ص٢٦، ص٢٧).